ملحق

حوار بين برتراند رسل وديفيد هيوم(★)

هيوم: إننى قد اطلعت يا سيد رسل على كتابك الأخير عن "المعرفة البشرية". ولا اعتزم الدخول معك فى نقاش حول المسائل المتعلقة بالنسبية أو علم الفلك، إذ ليس فى وسعى الخوض فى هذا المجال. بل إننى أشعر براحة أكبر فى تناول المسائل الخاصة بالاستقراء والاحتمال، وهما الموضوعان اللذان أفضت فى حديثك عنهما.

رسل: سوف يسعدنى ذلك يا سيد هيوم، فكم تمنيت طويلاً لو أنى دخلت ذات يوم فى حوار معك.

هيوم: لقد صادفتنى صعوبات كثيرة فى تتبع عرضك لمبدأ قابلية التصديق، فأنت تتحدث عن درجات التصديق العقلى، وأنا لا أعرف كيف يمكن أن تتصف درجات التصديق بأنها عقلية.

رسل: لابد لك أن تسلم يا سيد هيوم بأننا نقوم بوضع التمييزات المعقولة على اعتبار

(★) لقد كتب ريشنباخ هذا الحوار عام ١٩٤٦ تحت العنوان الآتى:

"A Conversation Between Bertrand Russell and David Hume", The Journal of Philosophy, Vol. 46, no. 17, PP. 545-9.

وقد قمنا بترجمة هذا الحوار ترجمة كاملة، ووقع اختيارنا على هذا الحوار كملحق لهذا البحث، وذلك لعدة أسباب:

أولاً: إنه نص للفيلسوف (ريشنباخ) الذى نقوم بدراسته.

ثانياً: يدور الحوار حول الاستقراء والاحتمال اللذين يشكلان ركيزتين أساسيتين للمنهج العلمى (موضوع الفصل الثالث).

ثالثاً: طرافة الفكرة، إذ عرض ريشنباخ بعض أفكاره الفلسفية بأسلوب جديد – بالنسبة له على الأقل – وهو أسلوب الحوار المُتَخيَّل بين فيلسوفين ينتمى كل واحد منهما إلى عصر مختلف.

رابعاً: إن شخصية هيوم التى تخيلها ريشنباخ إنما تعبر، فى واقع الأمر، عن أفكار ريشنباخ نفسه، لقد وضع ريشنباخ على لسان هيوم المُتخيَّل بعض الانتقادات التى أراد، هو نفسه، أن يوجهها إلى رسل. ولذلك نحن نعتقد أنه من الممكن أن نستبدل بعنوان هذا الحوار عنواناً آخر، وهو: "حوار بين هانز ريشنباخ وبرتراند رسل".

أنهـا درجـات لاعتقاداتنـا. فـنحن نعتقـد أن زرادشـت شخصـية حقيقيـة، وأن المسينيين(★) the Myceneans كانوا يتحدثون اللغة اليونانية القديمة، وأنه لا وجود لجنيات البحر. ومن ثمَّ فإن الشخص العاقل هو الذى يعرف أياً من هذه الأمثلة يصلح أن يكون أساسا لاعتقاده.

هيوم: الواقع أننى لا أفهم على وجه الدقة ما الذى تقصده، لأنه إذا كانت الأمور الواقعة التى نبحثها مجهولة، فإننى لن أعرف الاعتقاد الذى يمكن وصفه بأنه معقول.

رسل: إن الاعتقاد المعقول هو اعتقاد الرجل العاقل.

هيوم: والرجل العاقل هو الذى لديه اعتقادات معقولة. أليس هذا ما تريد قوله؟

رسل: كلا، ليس هذا ما أريد قوله على وجه الدقة، وإلا وقعت فى دور منطقى. ومع ذلك فلابد من وجود اعتقاد معقول، وإلا انتفى الانتظام والترابط من مجال المعرفة البشرية.

هيوم: أيُعَد هذا دليلاً منطقياً؟

رسل: يا سيد هيوم، لقد ذكرت أنت نفسك أن هناك بعض الاعتقادات التى لا يمكننا التخلى عنها تماماً، فلماذا كل هذا الحديث عن التشكك فى كل شيء، طالما أننا لا نستطيع أن نشك فى كل شيء؟ إنه ليس من الأمانة أن نبدأ بالشك الشامل على نحو ما فعل ديكارت.

هيوم: صحيح أننى قلت إن لدينا بعض الاعتقادات الراسخة، وأظن أننى قد أوضحت أيضاً أنه لا يجوز إقامة دليل منطقى استناداً إلى مثل هذه الاعتقادات.

رسل: هل تقصد أننا لا ينبغى أن نعتقد فى الاستقراء؟

هيوم: كلا، لقد قلت: إننى أؤمن بالاستقراء، غير أننى لا أجد سبباً ضرورياً لذلك، لأن وجود اعتقاد ما ليس دليلاً على صحة هذا الاعتقاد.

(★) أهل مدينة "مسينى" القديمة فى جنوب اليونان والتى أنشأها القائد الشهير ابامينونداس عام ٣٧٠ ق.م (المترجم).

رسل: ألا تعتقد أن زرادشت كان موجوداً؟

هيوم: لقد شرحت ذلك بدقة فى كتابك(★)، وترجمت هذا الاعتقاد إلى تكرار السجلات التاريخية. إن لهذا الاعتقاد درجة من الاحتمال يُعبّر عنها بتكرار الحدوث.

رسل: هل توافق، يا سيد هيوم، على التفسير التكرارى للاحتمال؟

هيوم: إننى أميل إلى قبول هذا التفسير. وأكدت على الدوام أن الضرورة الفيزيائية يمكن ترجمتها إلى لفظ "دائماً"، كما علمت أنك وغيرك قد اعترفتم بفضلى فى استبعاد هذا التصور الميتافيزيقى للضرورة. فإذا كان ثمَّة معنى لمفهوم الضرورة فلابد من ترجمته إلى ارتباطات يمكن ملاحظتها. وإذا كنت قد أكدت على التفسير التكرارى للاحتمال، فالضرورة تعنى: إن وجود (أ)، يلزم عنه دائماً وجود (ب)، فى حين أن الاحتمال الذى نسبته ٨٠٪ يعنى: إن وجود (أ) يلزم عنه وجود (ب) فى ٨٠٪ من الحالات.

رسل: ولكنك، يا سيد هيوم، تتحدث بالطريقة نفسها التى يتحدث بها ريشنباخ.

هيوم: قد يكون من الأفضل القول بأن ريشنباخ هو الذى يتحدث بطريقة مشابة لطريقتى. إننى لا أؤيد، بطبيعة الحال، كل ما قال به ريشنباخ. فهو يرى أن فى وسعه تقديم تبرير للاستقراء. أما أنا فلدىّ أفكار مختلفة عن هذا الموضوع. وكما تعلم فإنه من العسير إن لم يكن من المستحيل أن يغير المرء من آرائه. غير أن ريشنباخ قد أخذ، على الأقل، نقدى للاستقراء مأخذ الجد، ولم يعترف بأى نوع من أنواع الاعتقاد العقلى.

رسل: ولكننى قمت باستخدام الوسائل الرياضية لتحليل الأساس الذى يدفعنا إلى الاعتقاد فى الاستقراء. هل اطلعت على معالجتى الرياضية للاستقراء؟

هيوم: إن العلم الرياضى، يا سيد رسل، يقتصر على علاقة الأفكار بعضها ببعض، ولا ينبئنا بشيء عن أمور الواقع، لقد علمت أنك طبقت مبدئى مستخدماً كل الأساليب الفنية المعقدة للمنطق الرياضى، وأنك قد أثبت أنه يمكن رد الحساب

(★) يقصد كتاب رسل: Human Knowledge- Its Scope and Limits الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٨ فى لندن عن دار نشر: George Allen & Unwin LTD [المترجم].

إلى المنطق، ولذا فهو فارغ. ولا شك أنك تتفوق علىّ بدرجة كبيرة فى هذا المجال، يا سيد رسل، لأنك عالِم رياضى فى حين أننى لست كذلك. فكيف إذن تقول إن الرياضيات يمكنها إثبات الاستقراء؟

رسل: إننى لم أقل ذلك، بل على العكس، قلت – مثلك – إن الرياضة لا يمكنها أن تحقق صحة الاستقراء، وإن الاستقراء يحتاج إلى ركيزة من خارج مجال المنطق لا تستند إلى التجربة.

هيوم: هل قلت ذلك حقاً؟ أظن أننى قرأت شيئاً كهذا من قبل. لقد ثار جدل كبير من هذا النوع فى المذاهب العقلية التى شبهها "بيكون" بنسيج العنكبوت: فأنت تعلم أن العنكبوت ينسج خيوطه من المادة التى يستخرجها من جوفه. ولقد علمت أنه بعد موتى ظهر فيلسوف يقول: إننى قد أيقظته من سباته الدجماطيقى (*)، وقد أكد هذا الفيلسوف وجود معرفة تركيبية قبلية. ولكن ما جدوى استيقاظه من سباته، إذا كان فى آخر الأمر قد ارتد إلى نوع آخر من المعتقدات الدجماطيقية؟

رسل: إننى لم أقل بأفكار تركيبية قبلية.

هيوم: كلا، إنك قلت بمبدأ مستمد من خارج مجال المنطق ولا يستند إلى التجربة. فهل ثمَّة فرق؟

رسل: يا سيد هيوم، لابد من الاعتراف بأنه قد ثبت إخفاق المذهب التجريبى كنظرية فى المعرفة.

هيوم: لماذا؟ لأنك لا تستطيع الكف عن وصف الاعتقاد بأنه "عقلى"، ولأنك تعتقد أن القابلية للتصديق لا يمكن التعبير عنها من خلال تكرار الحدوث. إن كل محاولة لتفسير مفهوم الاحتمال بطريقة مختلفة عن طريقة تكرار الحدوث لابد أن تؤدى إلى ميتافيزيقا عقلية. ليس المذهب التجريبى هو الذى ثبت إخفاقه، بل إن الإخفاق قد نشأ من محاولة وضع الاعتقاد فى المكان الذى ينبغى أن يشغله حساب النسب الصحيحة.

(*) يقصد الفيلسوف الألمانى "إمانويل كانط" (١٧٢٤-١٨٠٤) (المترجم).

رسل: هل تعتزم تطبيق هذه النظرية بكل نتائجها يا سيد هيوم؟

هيوم: كم كنت أود أن تفعل أنت ذلك، لأنك مهيأ لذلك أكثر منى. ما الذى اضطرك إلى التوقف عن الاستمرار؟ ولماذا لا تعاود قراءة مؤلفات ريشنباخ مرة أخرى؟ إننى أعتقد أنه كان يقول على الدوام بضرورة استناد نظريته إلى تعاقبات متناهية، كما أردت أنت أن تفعل. وهل تعتقد حقا أن ريشنباخ لم يرد على حجتك الخاصة بالارتداد اللامتناهى؟

رسل: لقد قال بأنه أوقف الارتداد عند مستوى معين بواسطة الترجيح الأعمى. ولكن كيف أمكنه ذلك؟ يتحتم عليه أن يثبت أن هذا الترجيح أكثر صدقاً من أى ترجيح آخر، وأن يؤدى البرهان للعودة مرة أخرى إلى الارتداد اللامتناهى.

هيوم: إننى لست متأكداً بدرجة كافية من صحة حجتك، إنه لا يعنينى الدفاع عن ريشنباخ – الذى استشهد بى فى أحيان كثيرة – ولا أدرى إن كنت أحبذ ذلك أم لا، ولكن حسب علمى، فإنه قام بوضع ترجيحاته العمياء لأسباب أخرى غير الاحتمال.

رسل: ما هو يا ترى السبب الآخر للترجيح؟

هيوم: لقد وضع ترجيحات لأنها وسائل لتحقيق هدفه، لا لأنه يملك ما يبرر الاعتقاد فى صحة هذه الترجيحات.

رسل: ولكن إذا كانت بغيته الوصول إلى الحقيقة، فكيف يمكنه القيام بترجيح دون أن يكون لديه ما يبرر اعتقاده فى صدق هذا الترجيح؟

هيوم: هذه هى بغيته على وجه الدقة. لقد أوضح ريشنباخ أن لديه ما يبرر القيام بترجيحات، والتصرف على هدى هذه الترجيحات دون أن يكون لديه ما يبرر الاعتقاد فى صحتها، فهو يقول إن هذا هو السبيل إلى التغلب على نزعتى الشكية، وإننى فى واقع الأمر متردد فى قبول حجته، ومع ذلك فهى تتضمن شيئاً ما أقبله.

رسل: ما هو يا ترى؟

هيوم: إنه الإصرار على استبعاد الاعتقاد فى صدق الاستقراء من مجال المنطق.

رسل: إننى لا أريد منطقاً يستغنى عن الاعتقاد فى الصدق.

هيوم: هذا هو السبب فى أن منطقك لا يمكنه تبرير الاستقراء.

رسل: ولكن يمكننى أن أثبت بطلان مبدأ ريشنباخ فى الاستقراء، كما يمكننا التوصل إلى فئات معينة لا يصلح بالنسبة لها تطبيق مبدأ الاستقراء.

هيوم: هل تظن أنه يمكنك تكذيب الاستقراء بتقديم أمثلة بحيث تكون نتيجته غير صحيحة؟ لقد قيل لى أنهم قد اكتشفوا أنواعاً من البجع الأسود، ومع ذلك لم يؤد هذا الكشف إلى التخلى عن الاستقراء.

رسل: لماذا تدافع عن ريشنباخ يا سيد هيوم؟

هيوم: يبدو لى أنه قد حقق فى مجاله ما حققته أنت فى مجالك، فإذا كنت قد قمت من جانبك باستبعاد المبادئ التركيبية القبلية من مجال الاستقراء الرياضى، فقد استبعد هو هذه المبادئ من مجال الاستقراء الفيزيائى.

عند هذه اللحظة سُمِعَ صوت آت من أعلى (*)، يقول:

– "كف عن انتقادى يا ديفيد هيوم، فمازال هناك مكان لك فى السماء المرصعة بالنجوم التى تعلوك!"

رد هيوم قائلاً:

– "أبداً"

ثم عاد أدراجه إلى الجحيم.

(*) مرة أخرى يشير كاتب الحوار إلى الفيلسوف الألمانى "كانط" بوصفه صاحب هذا الصوت (المترجم).